

الدراسات السابقة في الدراسات الحالية

د. غني ناصر القرشي

جرت العادة قبل أن يشرع الباحث بتصميم خطة دراسته واختيار الطريقة المنهجية المناسبة لإجرائها؛ لا بد له من أن يقوم بمراجعة شاملة ودقيقة للتراث العلمي في مجال دراسته بهدف التعرف على المعلومات المتاحة عن مشكلة الدراسة، إذ أن مثل هذه الدراسات السابقة يمكنها أن تقدم وصفاً عاماً لمشكلة الدراسة الحالية، وقد تثير عدة تساؤلات حول هذه المشكلة، أو تناقش قوة أو ضعف المقاييس الإحصائية المستخدمة، وتلقي الأضواء على جوانب النقص أو الغموض في هذه الدراسات والنقاط التي تضاربت حولها، وتقدم له الاقتراحات التي توجه الدراسة الجديدة. ومن ثم على الباحث أن يحدد مدى الاستفادة التي حصل عليها من الدراسات السابقة حول موضوع دراسته سواء في الإطار المنهجي أو النظري أو الميداني أو في التوصيات والمقترحات وغير ذلك من جوانب دراسته.

وانطلاقاً من ذلك يبذل الباحثين جهودهم المتواصلة في البحث عن الدراسات السابقة ويحاولون عرضها بطريقة علمية مؤكدين على الجوانب التي لها علاقة مباشرة بموضوعاتهم المدروسة.

ومن خبرتنا المتواضعة في هذا المجال استطعنا الوقوف على بعض الملاحظات التي نعتقد أنها جديرة بالاهتمام ويمكن الاستفادة منها عند إجراء الدراسات على مستوى الماجستير والدكتوراه على وجه الخصوص. ومن هذه الملاحظات ما يأتي:

١- بعض الباحثين يستعرض دراسات عديدة قد تصل إلى (٣٠) دراسة أو أكثر. واستعراض مثل هذه الدراسات يأخذ حيزاً مهماً من الرسالة فقد يصل إلى (٤٠) صفحة أو أكثر. وفي تقديرنا أن هذا الإسهاب في استعراض الدراسات السابقة قد يكون له نتائج سلبية على الدراسة الحالية - لاسيما - إذا لم يستطع الباحث الوقوف على بعض التفاصيل المهمة والتي لها علاقة مباشرة بدراسته الحالية وأجهد نفسه في جوانب بعيدة عن دراسته.

٢- بعض الباحثين يستعرض بعض الكتب المطبوعة على أنها دراسات سابقة لدراسته، والبعض الآخر يستعرض فصولاً في بعض الكتب على أنها دراسات سابقة. والحقيقة هناك فرق كبير بين الكتاب المؤلف وبين الدراسة السابقة لأن الكتاب يعتمد على خطة معينة

يضعها المؤلف وفي ضوء تلك الخطة يقوم بتجميع معلوماتها وصياغتها بطريقة علمية يمكن الاستفادة منها بوصفها مراجع أو مصادر تعتمد عليها الدراسة الحالية. غير أن الدراسة السابقة تعتمد على خطوات منهجية واضحة ومحددة وهي قريبة من الخطوات المنهجية التي تعتمدها الدراسة الحالية؛ وهنا يمكن الاستفادة من خطواتها تلك في تنفيذ خطوات الدراسة الحالية وتجنب الأخطاء أو المعوقات التي واجهت الدراسات السابقة.

٣- بعض الباحثين يعمد إلى اتخاذ بعض الدراسات النظرية بوصفها دراسات سابقة لموضوع دراسته - لاشك - أن اعتماد الباحث على الدراسة الميدانية سيكون أكثر فائدة لدراسته الحالية.

٤- بعض الباحثين يميل إلى تلخيص الدراسات السابقة إلى الدرجة التي يجعلها قليلة الفائدة لدراسته، وبعضهم يميل إلى الإسهاب في عرض تفاصيلها إلى درجة تجعله لا يسيطر على تلك التفاصيل كلها علماً أن بعض تلك التفاصيل ذات أهمية كبيرة لدراسته الحالية.

٥- بعض الباحثين - بعد استعراضه الدراسات السابقة - (يهاجم) يناقش تلك الدراسات، ويحاول أن ينتقص منها بأي صورة كانت فمثلاً بعضهم يقول: أن الباحث فلان أخفق في دراسته لأنه لم يضمنها كذا وكذا، أو لأنه تناول الريف دون المدينة، أو المدارس الثانوية دون الابتدائية... الخ من الجوانب التي يراها تشكل نقاط ضعف في تلك الدراسات، وهو بذلك يحاول أن يرسم الصورة الجديدة والمميزة لدراسته التي استطاعت أن تتجاوز كل تلك الهفوات أو النقاط الضعيفة في الدراسات السابقة.

٦- بعض الباحثين يكتفي باستعراض الدراسات السابقة، ويناقشها ويشخص نقاط ضعفها وقوتها، لكنه في النتيجة لا يقدم للقارئ مدى الاستفادة منها - لاسيما - عند عرض نتائج دراسته، وهكذا تصبح تلك الدراسة عديمة الجدوى العلمية بحيث لو تم اقتطاعها من الدراسة الحالية لم يؤثر في هيكلها ولا في النتائج التي توصل إليها الباحث.

وفي هذا الإطار نضع المقترحات التالية بغية الاستفادة من الدراسات السابقة في الدراسات الحالية وعلى النحو الآتي:

١- يمكن للباحث أن يعرف القارئ بجهوده التي بذلها في سبيل الحصول على الدراسات السابقة في الحاشية السفلية حيث يمكن أن يعدد تلك الدراسات لاسيما إذا كانت كثيرة، ويستعرض بعضها على وفق أهميتها وعلاقتها بدراسته الحالية، فيبدأ بالأهم ثم المهم، فليس من الضرورة بمكان أن يستعرضها جميعاً مهما كثرت وتعددت لأن ذلك ليس محل بحثه، وهنا لا نقلل من أهمية تلك الدراسات غير المعروضة لكن بالتأكيد أنها ليست بنفس الدرجة من الأهمية للدراسة الحالية، والباحث هنا عندما يستعرض أهم تلك الدراسات يكون قد استفاد من الدراسات الأخرى الأقل أهمية في سياق الدراسات المعروضة.

٢- ينبغي أن يتم استعراض الدراسات بصورة متوازنة، بمعنى آخر لا يميل الباحث إلى العرض المقتضب، أو إلى الإسهاب في العرض، فحجم ما يكتبه الباحث عن كل دراسة سابقة رهن بقيمتها ومدى استيعابه لمضمونها، فبالأكيد هناك جوانب مهمة تتضمنها الدراسات السابقة للدراسة الحالية، وهنا يمكن للباحث التركيز على تلك الجوانب حتى لا تضيع جهوده بين المد والجزر إن صح التعبير.

٣- ينبغي على الباحث أن يبحث عن الدراسات الميدانية ذات العلاقة بدراسته وبيتعد قد الإمكان عن الدراسات النظرية، أو اعتماده بعض الكتب بوصفها دراسات سابقة لمجرد أن يرى الباحث هناك تلاقي بين عنوان الكتاب أو الفصل مع دراسته الحالية، ويستثنى من ذلك الدراسات الميدانية التي يميل بعض المؤلفين إلى تضمينها في كتبهم.

٤- الابتعاد عن اللغة الهجومية في التعامل مع الدراسات السابقة، والتحلي بقدر كبير من الموضوعية؛ ذلك لأنه يعدّ من أخلاق الباحث العلمي من جهة، ومن جهة أخرى ينبغي أن يفهم الباحث العلمي أن الدراسات السابقة مهمة ومفيدة جميعها لبحثه بالرغم من الهفوات أو الصعوبات التي واجهت أصحابها، فأبي باحث عند إجراء بحثه يكون محكوم بظروف ذاتية وموضوعية يمكن أن تؤثر في طريقة بحثه والنتائج التي توصل إليها، لذا من الإنصاف أن نقدر تلك الظروف ولا نحط من قدر الباحث السابق، وحتى دراستنا الحالية يمكن أن تتعرض بعد حين وفي ظروف أفضل للنقد، فطبيعة العلم تراكمية مثلها مثل البناء فما ينتهي إليه الباحث السابق يكمل بنائه الباحث اللاحق وهكذا. ولا ضير من وجود التشابه بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة في بعض الفصول أو المباحث فذلك لن يقلل من قيمة الدراسة الحالية.

٥- وحتى لا تضيع جهود الباحث الحالي لابد له أن يتم تحليل الدراسات السابقة، بناء على ما قدمته من:

أ- نظريات مختلفة.

ب- مناهج وأدوات بحث.

ج- نتائج.

وبعد هذه العملية، يقوم بعرض مختصر لأهم التوجهات النظرية والمنهجية والأدوات التي استخدمتها الدراسات السابقة، ثم يقدم مختصر لأهم نتائجها. ثم يعرض أوجه الاتفاق مع هذه الدراسات، ثم أوجه الاختلاف معها، ثم يحدد الإضافة المحتملة التي يمكن أن تأتي بها دراسته، أو بماذا تميزت الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة.